تماثيل الحقول وما ماثلها

مما يشبه التماثيل ما كانوا يقيمونه فى المزارع على هيئة الرجل لتفزيع الطير والوحش ويسمونه باللعين ، وبالرجل اللعين ، وبالخيال والضَبَغْطَرَى والمِجْدار والنُّطّار . قال الشماخ :

ذعرت به القَطا ونفيت عنه مقام الذئب كالرجل اللعين (٣٣٠)

وقال آخر :

أخ لا أخا لى غيره غير أننى كراعى الخيال يستطيف بلا فكر (٣٣١)

ولعل هذا النوع هو المقصود بقول القائل ، وهو من شواهد « شرح السيرافى على كتاب سيبويه » .

تعال نصنعْ رجلا مثل عَدِىّ نصنعه من الرقاع والعِصىّ (٣٣٢)

وذكر البغدادى فى « خزانة الأدب » قولا آخر فى الرجل اللعين الوارد فى بيت الشماخ فقال : « وقد أغرب أبو عبيد البكرى فى « شرح أمالى القالىّ » بقوله : كان الرجل فى الجاهلية إذا غدر ، وأخفر الذمة جعل له مثال من طين ونصب ، وقيل : ألا إن فلاناً قد غدر فالعنوه كما قال الشاعر :

فلنقتلن بخالد سرواتكم ولنجعلنّ لظالم تمثالا

فالرجل اللعين هو هذا التمثال . هذا كلامه ، فلينظر على هذا ما معنى البيت ؟ » انتهى .

ولا ريب فى أن هذه الشخوص لم تكن بالغة من الإتقان ما تطلبه صناعة التماثيل حتى يصح عدها منها وإلحاقها بها ، ولكن تمثال المرأة الذى صنعه سكان مصر* من الجريد والقراطيس ، وأقاموه فى طريق الحاكم بأمر الله الفاطمى ، وجعلوه هو وجنده يتوهمونه آدمية ترفع إليه قصة ، يدل على أن من هذا النوع ما كانوا يحكمون تمثيله إذا

(*) المراد بمصر الفسطاط ، كثرت تسميتها بذلك بعد بناء القاهرة ، وكانت مفصولة عنها ، فلما اتصلت بها ، وصارت قسما من أقسامها عبروا عنها بمصر العتيقة كما تسمى الآن ، وقد رأيت السخاوى يعبر به عنها فى « الضوء اللامع » .

أرادوه . وخلاصة القصة أنهم كانوا موتورين منه ، فكانوا يدسون إليه الرقاع المختومة بالدعاء عليه ، والسب له ولأسلافه ، والوقوع فيـه وفى حُرَمه ، حتى انتهى فعلهم إلى أن عملوا تمثال امرأة من جريد وقراطيس بخف وإزار ، ونصبوها فى الطريق ، وتركوا فى يدها رقعة كأنها ظلامة ، فلما رآها الحاكم غضب ، لأنه كان منع النساء من الخروج فى الطرق ، وأخذ الورقة منها ، فإذا فيها ما استعظمه من السب ، فأمر بالمرأة أن تؤخذ فوجدوها من جريد ، وعلم أنهـا من عمل أهل مصر ، فاشتد غضبه ، وأمر عبيده بإحراق المدينة ، فأحرقوا ثلثها ونهبوا نصفها . وقد ذكر هذه القصة بعض المؤرخين ، ولـكن المقريزى قال إنه لم يرها مسطورة ، وإن المسبّحىّ ذكر حريق مصر ، ولم يذكر قصة المرأة[٣٣٤] . قلنا ممن ذكرها ابن تغرى بردى فى « النجوم الزاهرة »[٣٣٥] ، نقلا عن ابن الصابئ ، وسبقه إلى ذكرها ابن الأثير فى « الكامل » ولـكن فى موضعين : أحدهما فى كلامه على قتل الحاكم بأمر الله ، فرواها كما أثبتناها ، والثانى قبل ذلك فى كلامه على وفاة أبيه العزيز ، فجعل عمل أهل مصر لهذا التمثال فى مدته لمـا ولى عيسى بن نسطورس النصرانى كتابته ، واستناب بالشام يهوديا اسمه منشا ، وأنهم كتبوا فى الورقة التى وضعوها بيد التمثال « بالذى أعز اليهود بمنشا ، والنصارى بعيسى بن نسطورس ، وأذل المسلمين بك إلا كشفت ظلامتى » . والذى عليه المؤرخون أنها وقعت مدة الحاكم ، وليس فيما حكوه عن العزيز ذكر للتمثال ، وإنما هى امرأة كتبت إليه بهذه العبارة فى قصة ، فكانت سبباً لعزل هذين العاملين ، ومصادرتهما ، فتوهم ابن الأثير أو من نقل عنه أن المراد بالمرأة هنا التمثال ، فخلط بين القصتين .

ومن هذا النوع تمثال فيل من البوارى ، عمله أهل بغداد ، وذكره أبو الفرج ابن الجوزى فى « مناقب بغداد » عند ذكره لبناء السور الذى أقامه عميد الدولة سنة ٤٨٨ فإنه لمـا شرع فيه أذن للعامة فى الاحتفال به ، فجاءوا بالأعلام والأبواق والطبول ، ومعهم المعاول وأنواع الملاهى يسيرون بها فى الأسواق ، فصنع بعضهم فيلا من البوارى المقيّرة ، وتحته قوم يسيرون به ، وصنع آخرون زرافة كذلك ، وعمل غيرهم قلعة تسير على محمل ، وفيها الرماة إلى آخر ما ذكره[٣٣٦] . قلنا والظاهر أن عمل هذه التماثيل فى الاحتفالات كان

شائعاً بين أهل بغداد ؛ فقد ذكر ابن الأثير في «الكامل» ، وابن الفرات في «تاريخه» ، في الصلح الذي وقع بين أهل السنة والشيعة سنة٥٠٢ ، بعد ماطالت بينهم الشرور ، أنهم احتفلوا لذلك ، وخرج أهل السنة لزيارة قبر مصعب بن الزبير ، ومعهم من الزينة والسلاح شيء كثير ، وجاءت طائفة بفيل عمل من خشب ، وعليه الرجال بالسلاح ، فاستقبلتهم الشيعة بالبخور والطيب والماء المبرد ، وأظهروا بهم السرور ، ولم يعترضوهم بمكروه ، غير أنهم في عودتهم انكسر الفيل عند قنطرة باب حرب ، فقرأ بعضهم : "ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل..." إلى آخر السورة . بل الظاهر أن ذلك كان شائعاً بمصر أيضاً مدة الخلفاء الفاطميين ، فقد أشار إليه المقريزي في «خططه» في كلامه على جامع الفيلة الذي بناه الأفضل ابن أمير الجيوش بسطح الجرف المطل على بركة الحبش ، الذي عرف بعد ذلك بالرصد ، ونص عبارته : « وإنما قيل له جامع الفيلة ؛ لأن في قبلته تسع قباب في أعلاه ذات قناطر إذا رآها الإنسان من بعيد شبهها بمدرّعين على فيلة كالتي كانت تعمل في المواكب أيام الأعياد ، وعليها السرير ، وفوقها المدرعون أيام الخلفاء »(٣٣٨) .

ومن غريب ما ذكروه من مزاعم العرب في جاهليتهم ، ويصح إلحاقه بهذا النوع ، تماثيل الجمال التي كانوا يعملونها من طين ، قال ابن أبي الحديد في «شرح نهج البلاغة» : « ومن أعاجيبهم أنهم كانوا إذا طالت علة الواحد منهم وظنوا أن به مسًّا من الجن ، لأنه قتل حية أو يربوعاً أو قنفذاً ، عملوا جمالا من طين ، وجعلوا عليها جوالق ، وملؤوها حنطة وشعيراً أو تمراً ، وجعلوا تلك الجمال في باب جُحر إلى جهة المغرب وقت غروب الشمس ، وباتوا ليلتهم تلك ، فإذا أصبحوا نظروا إلى تلك الجمال الطين ؛ فإن رأوا أنها بحالها قالوا : لم تقبل الدية ، فزادوا فيها ، وإن رأوها قد تساقطت وتبدد ما عليها من الميرة ، قالوا : قد قبلت الدية ، واستدلوا على شفاء المريض ، وفرحوا وضربوا بالدف ، قال بعضهم :

قالوا وقد طال عنائي والسَّقَمْ   احمل إلى الجن حَمالاتٍ قَضِم *
فقد فعلت والسَّقام لم يَرِمْ   فبالذي يملك بُرئي أَعتصم† »

(*) الحمالات جمع حمالة بفتح الأول : وهي الدية يحملها قوم عن قوم . والقَضَم اسم جمع للقضيم ؛ وهو شعير الدابة ، والمراد به هنا هو أو ما يشبهه من برّ وغيره .

(†) لم يرم . أي لم يبرح .

وقال آخر :

فياليت أنّ الجنّ جازوا حَمالتى ... وزحزح عنّى ما عنانى من السُّقْم
ويا ليتهم قالوا أنطنا كلّ ما حوت ... يمينك فى حرب غماس وفى سلم*
أعلل قلبى بالذى يزعمونه ... فيا ليتنى عوفيت فى ذلك الزعم

وقال آخر :

أرى أن جِنّان النويرة أصبحوا ... وهم بين غضبان على وآسف†
حملت ولم أقبل إليهم حمالة ... تسكّن عن قلب من السقم تالف
ولو أنصفوا لم يطلبوا غير حقهم ... ومن لى من أمثالهم بالتناصف
تغطّوْا بثوب الأرض عنّى ولو بَدَوْا ... لأصبحت منهم آمناً غير خائف »(٣٣٩)

انتهى ما ذكره ابن أبى الحديد .

ومن التماثيل التى كانوا يصنعونها من الطين أو الخشب صورة أسد يتخذه صائدو الأسود لتدريب الخيل وتعويدها . وكان بعضهم يتورع عن تصوير الوجه فيجعل موضع رأس الأسد عمامة . قال محمد بن منكلىّ نقيب الجيش بمصر مدة الأشرف شعبان فى كتابه الذى ألّفه فى الصيد وسماه « أنس المَلا بوحش الفَلا »†† مانصه : « ولا ينبغى أن تقدم على السبع إلاّ على فرس لا ينفر عن الأسد ، ويكون قد تعلم قبل ذلك على صورة أسد من طين أصفر بلا رأس خشية التحريم ؛ لكن اجعل على موضع رأسه عمامة صفراء محوقة . وكان عندى حصان لا ينفر من الأسد كنت علّمته على هذه الصورة . وينبغى لمن يهذب فرسه على السبع أن يجعل هيئة سبع من خشب أو طين فيُحمل ذلك التمثال إلى أرض مستوية ، ويجعل له العمامة عوض الرأس كما تقدم ، ويكون الناصب له قد أوثقه فى الأرض كما يفعل بالشخص الخشب ، وأنا لا أرى بتصوير ذلك الشخص لما فيه من النهى الشرعىّ ؛ فإن نصبت هيئة الأسد من الخشب فارمه وأنت سائق لفرسك ، واضربه بسوط حتى يأنس فرسك ذلك ، ولا يكون الرمى عليه إلا بعد أن يألف ذلك الشخص

(*) أنطى : بمعنى أعطى فى لغة اليمن ، وقد وصل همزته للضرورة .
(†) الجنّان ، بكسر الأول وتشديد النون : جمع جانّ .
(††) طبع فى باريس سنة ١٨٨٠ م ومعه ترجمته إلى الفرنسية .

الموضوع من الطين ، ولكن يعمل له ذنب من خِرَق صفر على هيئة ذنب الأسد ، وتكون قد وضعته على شكل أكبر ما يكون من السباع . واجعل علف فرسك على ظهره ، بعد استئناسه ، واجعل مع الشعير زبيباً أو قطعاً من الناطف من الحلواء الخارجية التى قيمتها نصف درهم الرطل . فإذا أنس ذلك فاعمد حينئذ إلى وضع الشكل من خشب وادهنه بالزرنيخ الأصفر أو الطين الأصفر ، وليكن له ذنب ؛ فإذا خرجت بالتمثال إلى الصحراء ، وليكن من الخشب الخفيف كالسفصاف ونحوه ، فاجعل ليديه ورجليه بَكَرًا كبارًا وار بط به حبلًا طويلًا يجرّه رجل قبالة الفرس قليلًا قليلًا ، ثم يستوقف الفارس فرسه على تلك الصورة ، وليكن الجارّ لذلك التمثال يقف به قليلا ثم يجره ويقف ، لئلا ينفر الفرس منه ؛ هكذا أياماً حتى يجرّه بقوة ويقدم على الفرس ويزأر ذلك الرجل كزئير الأسد ويخشّن صوته ما استطاع ، وينبغى أن يكون جَهْوَرِىّ الصوت ، ثم يستصحب معه بعد ذلك قرقلة* ، ويكون حسن التصويت بها حتى يعتاد الفرس على زئير السباع واستماع صوت الأسد عند رفع ذنبه »(٣٤٠)

وذكر ابن منكلىّ فى موضع آخر من كتابه هذا ، فى باب تضحيك الملوك أنهم كانوا يعملون تماثيل تشبه بعض الغلمان ورجال الحاشية ، ويدربون صقور الصيد على الانقضاض عليها حتى إذا خرج الملك إلى الميدان يرسلونها على الشخص الذى دربوها على تمثاله فتنقض عليه . ثم ساق قصة وقعت فى ذلك بالحلّة زمن دبيس بن مَزْيَد ملك العرب بين حميد مربّى صقوره ووزيره جمال الدين ؛ وكان الوزير حبس رزق حميد فاتخذ هذا تمثالا يشبهه ودرب عليه الصقور ، ثم أطلقها على الوزير بحضرة الملك فى الميدان ، ولم يخلصه منها حتى وفى له بالمال . وأنعم عليه بزيادة من عنده . ثم ذكر المؤلف أن مثله كثير الوقوع بحضرة الملوك مثل صاحب الموصل وبغداد وغيرهما(٣٤١)

(*) هكذا بالأصل ، والظاهر أنها آلة للتصويت أو بوق أو وعاء ينفخ فيه ، وقد وهم المترجم فترجمها بامرأة تشترك مع الرجل فى التصويت . ونص عبارته : Ensuite il se fera accompagner par une femme et tous deux s'efforceront de crier . وقد سبق للمؤلف أن ذكر فى كتابه هذا صفة قدر مدبرة تعمل ليخرج منها صوت كزئير الأسد لتفزيع الوحوش المؤذية وطردها عن الأماكن والبساتين ، فالراجح أنها هى المرادة هنا ، وإذا صح ذلك ، فلا يبعد أن تكون العامة حرفت اسمها عن القرقارة ، وهى إناء طويل العنق سمى بذلك لقرقرته ، ثم أطلقت الاسم بعد تحريفه على هذه القدر .